التربية الجنسية بين فقه الضرورة ومحاذير الإثارة

د/ بن مصمودي
علي جامعة معسكر

يخشى الناس من استخدام كلمة "الجنس" ظنا منهم أن كل عبارة ترد فيها هذه الكلمة هي عبارة لاأخلاقية. الحقيقة أن لهذا الاعتقاد، رغم خطئه، ما يسنده في الواقع، إذ أن تلك الكلمة لا تستخدم في وسائل الإعلام إلا بمعناها السلبي؛ قلما نعثر على برامج تتناولها بالمعنى الإيجابي، أي المعنى العلمي أو الفقهي للكلمة. إن شيوع هذا الاستخدام السيئ لكلمة "الجنس" جعل الناس يربطون ربطا ذهنيا بينها وبين الممارسات الجنسية اللاأخلاقية، ولاسيما أن هناك قنوات فضائية أكثر تطرفا من الوسائل التي أشرنا إليها آنفا، والتي تستخدمها على المستوى اللفظي فقط، تعدت الممارسة اللفظية إلى الممارسة السلوكية.

لذلك وجب علينا أن ندفع بالبحوث التي من شأنها أن تقنع الناس أن الجنس هو جزء من حياتنا، شئنا ذلك أم أبينا، وأن الإنسان كما ينمو من الناحية العقلية والاجتماعية والنفسية، ينمو من الناحية الجنسية. زد على ذلك أن الدافع الجنسي هو دافع فطري غريزي في الإنسان؛ أي أنه غير مكتسب من خلال التنشئة الاجتماعية، من ثم فالإنسان ليس مخيرا في تعلمه.

نطرح في بحثنا هذا التساؤلات التالية: ما هي التربية الجنسية؟ ما هي أسلم الطرق لإمداد الفرد في مجتمعنا بالمعرفة الجنسية بعيدا عن الإثارة؟ هل التربية الجنسية ضرورية أم أنها مجرد بدعة ابتدعها الغرب؟ وما مدى أصالتها في التراث الإسلامي؟

1. مفهوم التربية الجنسية:

هي نوع من التربية يسمح بإمداد الفرد بمعلومات صادقة وصريحة وعلمية، وتكوين اتجاهات سليمة اتجاه الجنس، بما يتوافق مع النمو المعرفي والنفسي والجسمي الفسيولوجي للفرد، في إطار المعايير الأخلاقية والدينية والاجتماعية السائدة في المجتمع. فهي تتيح للفرد فرصة الحصول على معلومات وخبرات تؤهله للتكيف مع التغيرات الجنسية، كما تهدف إلى فهم كل العلاقات بين الجنسين، لجعل نظرة الفرد للدافع الجنسي كنظرته لأي دافع آخر (1).

إذا، هي عملية توعية للفرد وتبصيره بما حدث في داخله من تغيرات مع البلوغ، وتحذيره من الإشباع بطرق تضر بصحته الجسمية وتوافقه النفسي وقيمه الدينية والأخلاقية. لذلك يجب مراعاة أن نمد الفرد بالمعلومات العلمية والخبرات الصحيحة والاتجاهات السليمة إزاء المسائل الجنسية بقدر ما يسمح به نموه الجسمي والفسيولوجي والعقلي، في إطار التعاليم الدينية، والمعايير الاجتماعية والقيم الأخلاقية مما يؤهله لحسن التوافق في المواقف الجنسية ومواجهة

المنارة للاستشارات

مشكلاته الجنسية في الحاضر والمستقبل مواجهة واقعية تحافظ على الصحة النفسية(2). أي أنه سيكون بلا فائدة، بل وضار أن تكون المعلومات الجنسية المقدمة للفرد غير متناسبة مع سنه والمرحلة النمائية التي يعيشها. جدير بالذكر في هذا المقام أن التربية الجنسية لا تبدأ مع بلوغ الفرد، بل يجب أن تبدأ قبل ذلك بكثير؛ أي في مرحلة الطفولة المبكرة، إذ أن الأطفال في هذه السن كثيرا ما يطرحون الأسئلة الجنسية، مثل: لماذا تنام الأم بجانب الأب؟ من أين جئت؟ لماذا الولد لديه قضيب و الفتاة لا؟. . . إلخ

2. أهداف التربية الجنسية:

نهدف من خلال تدريس التربية الجنسية في المدارس، و تلقينها في البيوت إلى ما يلي:

- إمداد الفرد بمعلومات كافية وصحيحة حول الأمور الجنسية ، سواء فيما يخص التغيرات التي تطرأ على الجنس الذي ينتمي إليه هو أو على الجنس الآخر.

– تصحيح ما قد يكون لدى الفرد من معلومات وأفكار واتجاهات خاطئة ومشوهة نحو بعض أنماط السلوك الجنسي(3).

- تصحيح المفاهيم والمعتقدات الاجتماعية الخاطئة المتعلقة بالجنس والسلوك الجنسي، كاعتبار التربية الجنسية تزيد من فضول الأطفال والمراهقين، وتزيد من اهتمامهم بالأمور الجنسية، وأنها تؤدي إلى التجريب الجنسي والإفراط في السلوك الجنسي المتحرر من المسئولية الدينية والاجتماعية، وبأنها تفسد أخلاق الأبناء وتلهب مشاعرهم الجنسية(4).

- مواجهة التكتم والتحفظ والتزمت في الأمور الجنسية من جهة، والمفاهيم والقيم الوافدة من الغرب من جهة أخرى.

– قطع الطريق على الانحرافات الجنسية(كالجنسية المثلية والعادة السرية والزنا. .)، وذلك بالتوعية بمخاطرها.

– تعليم الأطفال والمراهقين الألفاظ العلمية المتصلة بأعضاء التناسل والسلوك الجنسي، وإكسابهم التعاليم الدينية والمعايير الاجتماعية والقيم الأخلاقية الخاصة بالسلوك الجنسي(5).

– مواجهة متطلبات النمو الجنسي في مرحلة البلوغ حيث تبدأ الغريزة الجنسية في النشاط.

3. مراحل التربية الجنسية:

ذكرنا فيما سبق أن التربية الجنسية ضرورية في كل مراحل النمو؛ من الطفولة حتى الرشد، لكن نوع المعلومات التي يحتاجها الطفل تختلف عن تلك التي يحتاجها الراشد المقبل على الزواج، لذلك يجب أن نحترم المرحلة النمائية وأن يلبي نوع المعلومات المقدمة احتياجات الفرد.

1. 3 مرحلة الطفولة:

المنارة للاستشارات

يحتاج الطفل إلى أن نجيب على أسئلته، والتي غالبا ما تكون بدافع الفضول ليس إلا، وذلك نظرا لتميزه بحب الاستطلاع، تلك الأسئلة التي تبدو ساذجة. المطلوب منا في هذه المرحلة أن تكون إجاباتنا مبسطة تتناسب مع النضج العقلي للطفل، كما أن التفصيل في الإجابة ليس ضروريا، لأن الطفل لن يستوعبها من جهة، وأن الأطفال عادة لا يهتمون بتفاصيل الإجابة من جهة ثانية.
مع تقدم الطفل في السن، ينتبه للأهمية الجنسية للأم، لأنها أساس عملية الإنجاب، لذلك تكون أسئلته حول الوظيفة البيولوجية للأم، ويكون ذلك بإلحاح إذا تصادف ذلك مع حمل آخر للأم. يمكن أن تلجأ الأم في هذه الحالة إلى إفهام الطفل أن حملها هذا هو من أجل إنجاب طفل يشاركه في اللعب حتى لا يبقى وحيدا. تأتي ملاحظة الطفل للوظيفة الجنسية للأب متأخرة مقارنة مع ملاحظته لدور الأم. يستطيع الوالدان في هذه المرحلة الاستعانة بالحيوانات الأليفة كنماذج تساعد الطفل على الفهم (6).

2. 3 مرحلة المراهقة:

مع البلوغ تصبح التربية الجنسية ذات أهمية أكبر، إذ أن الأسئلة التي تدور في ذهن البالغ لا تتعلق بشخص آخر، بل بما يحدث له هو من تغيرات، يمكن تمييز ثلاث مراحل فرعية في هذه المرحلة:

1. 2. 3 مرحلة ما قبل البلوغ:

تمتد من نهاية الطفولة المتأخرة و حتى البلوغ (من 10 سنوات إلى 12 سنة)، تظهر خلالها المظاهر الجنسية الثانوية (خشونة الصوت، ظهور الشعر في العانة تحت الإبطين و على كامل الجسم لدى الذكر، بروز الثديين ونعومة الصوت و نمو عظام الحوض لدى الأنثى). يكون ظهور هذه المظاهر مصحوبا بحالة من القلق نتيجة التغيرات الطارئة والسريعة، حيث يحس الفرد بقوة خفية تطلب منه الإشباع الجنسي. تكون ميول البالغ لنفس الجنس واضحة في هذه المرحلة، مما قد يسبب الجنسية المثلية، والميول هنا تكون في شكل مودة وعاطفة (7).
إن مساعدة البالغ في فهم تلك التغيرات أمر ضروري، وليس من المناسب ترك البالغ دون توضيح لما يحدث له لأن ذلك قد يسبب له الكثير من التشويش والحيرة والاضطرابات. يمكن أن تدرج محاور حول النشاطات الفسيولوجية وما تؤدي إليه من تغيرات جسمية في مادة العلوم الطبيعية.

2. 2. 3 مرحلة البلوغ:

في هذه المرحلة تبدأ الغدد الجنسية في أداء وظيفتها، مع عدم النضج الكافي لممارسة الجنس، وتظهر المظاهر الجنسية الأولية المتمثلة في الحيض عند الفتاة والقذف عند الفتى، ونمو الأعضاء الجنسية في الحجم. يتحول المراهق من الاهتمام بنفس الجنس إلى الاهتمام بالجنس الآخر (8).
من الضروري أن تدور التربية الجنسية في هذه المرحلة حول التغيرات الجسمية التي حدثت له وأسبابها الفسيولوجية. كما يجب توضيح الفروق بين الذكور والإناث

المنارة للاستشارات

في النمو الجنسي ووظيفة كل منهما في الحياة الأسرية. يمكن أن تدرج هذه المحاور في المواد الدراسية: العلوم الطبيعية، التربية الإسلامية.

3. 2. 3 مرحلة ما بعد البلوغ:

خلالها يمكن للمراهق أداء وظيفته التناسلية كاملة، وذلك باكتمال الوظائف العضوية ونضج الأعضاء التناسلية. إن عدم تمكن المراهق من الإشباع بالطريقة المشروعة يدفعه إلى ممارسة العادة السرية، وهذا ما يعود عليه بالشعور بالذنب (9).

يجب أن تتمحور مناهج التربية الجنسية في هذه المرحلة حول طريقة الإشباع الطبيعية وهي الزواج. كما يجب أن تتضمن دروسا حول مخاطر الإشباع غير السوي للدافع الجنسي، كالممارسات الشاذة، العادة السرية، الجنسية المثلية، الزنا. . .

3. 3 مرحلة الرشد:

الراشد هو إنسان يملك قدر لا بأس به من المعلومات، صحيحة كانت أم خاطئة، كما أنه في العادة هو على مرمى حجر من الولوج إلى الحياة الزوجية، لذلك وجب أن تكون مضامين التربية الجنسية المقدمة له تتناسب مع ذلك كله. يجب أن تتمحور حول العلاقات الجنسية السوية بين الزوجيين، وتوضيح مختلف الوضعيات المناسبة لعملية الجماع، مع التحذير من السلوكيات الشاذة كالإتيان في الدبر أو في الحيض. مع العمل على تصحيح المعلومات المغلوطة التي يملكها الراشد حول الجنس.

4. الفرق بين أهداف التربية الجنسية لدى الغرب و في الإسلام: إن الاختلاف التشريعي الحاصل بين الإسلام و التشريعات الغربية، جعل منظور كل منهما للجنس مختلف، ولذلك اختلفت أهداف التربية الجنسية ومضمون المناهج الخاصة بالتربية الجنسية. إن التربية الجنسية في الإسلام تسعى إلى توضيح خصائص الدافع الجنسي وضرورة إشباعه الطرق المشروعة، والطريق الوحيد المشروع في الإسلام هو الزواج. وقد وضع الإسلام لتحقيق هذا الهدف منظومة متكاملة تصب كلها في هذا المعنى وأهم محاورها:

- تعليم الطفل آداب الاستئذان منذ مرحلة التمييز.

– تعليمه غض البصر؛ إذ حرم الإسلام النظر إلى مفاتن الجنس الآخر، وذلك درءا للفتنة التي قد تصيب الفرد فتلهب مشاعره وقطعا للطريق على أية علاقة محرمة يمكن أن تنشأ نتيجة لذلك.

– حث الراشد على التعجيل بالزواج، وإن تعذر عليه فالاستعفاف (10).

هذه بعض محاور تلك المنظومة التي وضعها الإسلام، وكما يظهر بجلاء فإن هدف الإسلام هو إمداد الفرد بالمعلومات الجنسية مع الوقاية من العلاقات التي إن وقعت تؤثر على الصحة النفسية للفرد.

المنارة للاستشارات

أما التربية الجنسية عند الغرب فهدفها الرئيسي هو توعية الفرد بضرورة ممارسة الجنس آخذا شروط السلامة بعين الاعتبار، كما تهدف إلى حث القصر على عدم ممارسة الجنس بصورة كلية، ولكن لا بأس من ممارسة مقدمات الجنس كالاحتضان والتقبيل. . . أما إذا أضطر لممارسة الجنس فعليه أخذ الاحتياط حتى يتجنب الحمل في هذه المرحلة التي لا يستطيع فيها تحمل المسئولية، كما يجب عليه عمل ما يلزم لتجنب الأمراض المتنقلة عبر الجنس!! لذلك نجد كتاب "الجنس والنوع" لصاحبته بربرا سميث تتساءل فيه :" هل تعد برامج تعليم الجنس المطورة من أجل الشباب الصغير ذات فاعلية؟ هل تعد الأساليب الحالية في تعليم منع الحمل ومنع الأمراض الجنسية أساليب ذات فاعلية؟ هل المناهج التي تركز على الامتناع عن الحمل تعد أكثر فاعلية من تلك التي تستخدم وسائل تحديد النسل؟ (11)

إذن، فلسفة هؤلاء عن التربية الجنسية تختلف كليا عن فلسفتنا كشعوب عربية إسلامية لها قيم وأخلاق معينة لا يجوز بحال من الأحوال أن تكون تبعا لهم في هذا المجال بالذات. وهذا وحده كاف لإسكات تلك الأصوات التي تدعو لعدم الخوض في التربية الجنسية باعتبار ذلك يزيد في إثارة الشهوات لدى أفراد المجتمع. ونقول لهم إذا لم نخض نحن في هذا الموضوع فسنكون مرغمين على تبني مناهج وضعت في بيئة مختلفة عن بيئتنا وموجهة لأناس يحملون قيما تتعارض كليا مع قيمنا. كما أن الإسلام لا يحرم وضع مناهج للتربية الجنسية في حدود أوامره ونواهيه، بدليل خوض علماء ذوي باع في الفقه الإسلامي في هذا الموضوع من أمثال الدكتور يوسف القرضاوي.

5. مداخل تدريس التربية الجنسية:

ما هي يا ترى أنسب السبل لتقديم تربية جنسية هادئة وهادفة للفرد؟ هل تقدم في إطار مادة مستقلة نسميها "مادة التربية الجنسية"؟ وهذا منظرو له من يؤيده، أم ندرج محاورها في مواد دراسية أخرى كالعلوم الطبيعية والتربية الإسلامية؟

قبل الخوض في هذا الإشكال والذي يعد من أهم محاور بحثنا هذا، يجب التأكيد على بعض المبادئ التي أرى أنه مهما كانت الإجابة و الطريقة التي سنعتمدها، لابد من أخذها بعين الاعتبار:

- يجب أن يكون المدرس الذي يضطلع بالتربية الجنسية ذا تكوين عال في هذا المجال، وذلك من الناحية العلمية والبيداغوجية.

– يفضل الفصل بين الذكور والإناث أثناء تدريس المادة، وذلك من شأنه رفع الحرج وتجنب أخذ التلاميذ المقرر بسخرية.

– ينصح بأن يقدم المادة للبنات أستاذة وللبنين أستاذ ذكر، وذلك أن كل واحد منهما أدرى بجنسه من جهة، وحتى نرفع بعض الحواجز النفسية ويتجرأ التلاميذ على طرح الأسئلة والمناقشة من جهة أخرى.

المنارة للاستشارات

– يجب استخدام الألفاظ العلمية والفقهية التي تؤدي الغرض مع شرح كل مصطلح، ولا يجوز بأي حال من الأحول اللجوء إلى الألفاظ الدارجة، ذلك أن هذه الأخيرة تحمل شحنة عاطفية وغريزية قد تستثير الغرائز.
– بالإضافة إلى الحصص الجماعية، ينصح بالإجابة عن الأسئلة ذات الطابع الشخصي على إنفراد، وذلك حتى نحافظ على الأسرار الشخصية.
أما فيما يتعلق بأنسب الوسائل لتدريس التربية الجنسية، فقد توصل الباحث الحسني الحسني المعدي في كتابه "التربية الجنسية في مختلف المراحل من منظور إسلامي إلى أنه يمكن تقديم المادة عبر المداخل التالية (12):

1. 5 المدخل العلمي:

يكون ذلك في مادة العلوم الطبيعية، علم الأحياء، الفسيولوجي والبيولجيا، من خلال تعريف التلاميذ بالحقائق العلمي عن فسيولوجيا الإنجاب، والتكاثر، ومظاهر النمو الجنسي، وما يصاحبه من تغيرات جسمية، والسلوك الجنسي السوي، والسلوك المنحرف، وما يترتب عنه من أمراض تناسلية.

2. 5 المدخل الفقهي:

يتم ذلك في مادة التربية الإسلامية، خلالها يجب توضيح الأحكام الشرعية التي ترتبط بالغريزة الجنسية عموما والعملية الجنسية بين الزوجين بوجه خاص، كآداب المعاشرة الجنسية، أحكام الطهارة والاغتسال، أحكام النظر والاستئذان، والعفة. . . كما يجب التأكيد على حرمة الزنا في الإسلام الحنيف والتغليظ في العقوبات لمن أتى ذلك، وتبيان حكم الدين في العلاقات التي يسعى الشباب لإقامتها مع الجنس الآخر، كما يجب التشديد على خطورة الانحرافات الجنسية على التوافق النفسي والاجتماعي للفرد، وكذا توضيح الموقف الصريح للإسلام فيها. كما أن تقديم دروس العبادات تعد فرصة سانحة لإمداد التلاميذ بمعلومات حول نواقض الاغتسال، وتبيان حكم ما يخرج من الفرد من سوائل كالمني، والودي، وما يلزم كل منها، مع التركيز على المني. كما يمكن أن يكون فقه المعاملات فرصة أخرى لنبين له الحكمة من منع الممارسات الجنسية خارج إطار الزواج، والحلول التي يقدمها الإسلام للمشكلات التي تنشأ بين الزوجين، كالنشوز، الخيانة الزوجية، اللعان، الإتيان من الدبر أو في الحيض. . .
يمكن أن يكون تدريس موضوع الأخلاق مناسبة أخرى تسمح بتقديم محاور عن التربية الجنسية، كآداب الاستئذان، التفريق بين الأبناء في المضاجع، آداب النظر، آداب الخطبة وحقوق الخطيب، الشروط الواجب توفرها في الزوج. . .
إن تفسير الآيات والأحاديث النبوية ذات الصلة المباشرة وغير المباشرة بالتربية الجنسية هي فرصة أخرى لتقديم محتوى المادة؛ كقوله تعالى: "وعاشروهن بالمعروف"، "فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله"، "والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين".

3. 5 المدخل اللغوي:

المنارة للاستشارات

يتجسد ذلك في مادة اللغة العربية، حيث يمكن إدراج بعض النصوص التي تتضمن مفاهيم حول التربية الجنسية، يقوم الأستاذ أو الأستاذة بشرح معانيها وإمدادهم بمعلومات كافية عن المفاهيم موضع الشرح، كالرفث، المضاجعة يهدف هذا المدخل إلى تعريف التلاميذ بالمصطلحات العلمية والفقهية المستخدمة في التربية الجنسية، ذلك ليتحاشوا استخدام المصطلحات الدارجة والتي يمكن أن تؤدي إلى نتائج عكسية. .

الخلاصة: بناء

على ما سبق، نستطيع القول أن الخوض في موضوع التربية الجنسية وإدراجها في المناهج الدراسية يعد ضرورة تفرضه طبيعة وفطرية الجانب الجنسي في الإنسان. كما أن الظروف التي تحيط بنا والتقدم الهائل في المجال التكنولوجي جعل من الوصول إلى المادة الجنسية سهلا، لذلك وجب تحصين أفراد المجتمع من التعامل السيئ مع الجنس. بما أن الإسلام من حيث المبدأ لا يعارض تدريس التربية الجنسية، بل كان أو دين شرع لذلك في إطار من القيم والأخلاق والحفاظ على الذوق العام للمجتمع. إن الاهتمام بموضوع التربية الجنسية يجعلنا بحاجة إلى التركيز على ثلاثة أبعاد:

- المعلم: حيث يجب أن يكون ملما بالمادة، يحمل شهادة تؤهله للخوض فيها، يجيد استخدام أنسب الوسائل و المصطلحات لتأدية هذه المهمة، مع الابتعاد قدر الإمكان عن الإثارة.
- البرنامج: يجب أن تكون أهداف المادة واضحة، وأن يكون محتوى البرنامج علميا يؤدي الغرض، ولا بأس من الاستعانة بخبراء في علم النفس، علوم التربية، الفسيولوجيا، واللغة لبناء هذه البرامج، حتى لا نجد أنفسنا أمام مادة جنس، وإنما تربية جنسية.
- المصطلحات: يجب إستخدام المصطلحات الواردة في الدين الحنيف من خلال القرآن والسنة، إضافة إلى المصطلحات العلمية والخاصة بعلوم الفسيولوجيا، بيولوجيا. . . وذلك حتى لا نلهب الغرائز.

الهوامش:

(1) معوض خليل ميخائيل/ سيكولوجية النمو-الطفولة والمراهقة/ مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية/ 2003/ ص 365

(2) لعمرية صلاح الدين/ علم النفس النمو/ مكتبة المجتمع العربي/ عمان/ 2005/ ص296.

(3)العمرية صلاح الدين/ نفس المرجع/ ص 296.

(4) معدي الحسني الحسني/ التربية الجنسية في مختلف المراحل من منظور إسلامي/ دار العلم والإيمان/ القاهرة/ 2005/ ص94.

(5) العمرية صلاح الدين/ نفس المرجع/ ص 296

(6) عريفج سامي / علم النفس التطوري/ دار مجدلاوي للنشر والتوزيع/ عما ن/ 1993/ ص 200.

(7) معوض خليل ميخائيل/ نفس المرجع/ ص 337.

المنارة للاستشارات

(8) معوض خليل ميخائيل/ نفس المرجع/ ص 338
(9) معوض خليل ميخائيل/ نفس المرجع/ ص 340
(10) موسى رشاد علي عبد العزيز/ الجنس والصحة النفسية/ عالم الكتب/ القاهرة / 2008/ص. 13
(11) سميث بربرا/ الجنس والنوع/ ترجمة:الخفش سامي وديع وسليط محمد صبري/ دار الفكر/ عمان/ 2009/ ص 500
(12) معدي الحسني الحسني/ نفس المرجع/ 105-162

المنارة للاستشارات